تمهيد

ظاهرة الاستشراق

من الصعب على أي باحث في مجال الدراسات الاستشراقية قديمها وحديثها، أن يغفل دراسة الاستشراق كظاهرة، لا يتوقف أثرها عند حدود الأهداف المعرفية، فالمعرفة هدف وغاية في مواطن كثيرة، والاستشراق كظاهرة ثقافية لا يمكن فهم حركتها وتفسير تناقضاتها إلاّ في إطار نظرة شمولية تستوعب الحركة الثقافية والفكرية في إطار انسجامها وتعبيرها عن مواقف نفسية متراكمة في موطن الوعي الذاتي للإنسان.

والإنسان وليد انفعالات تمثل إرثه القديم منذ طفولته الأولى، حيث تتراكم في النفس الإنسانية عواطف ومؤثرات وتصورات، فالطفل الصغير في سنواته الأولى يسمع ويرى، ويتراكم كل ذلك في تكوينه، وعندما يكبر وينضج، يحاول أن يختار طريقه وأن يكشف قدراته، ولا يدري أنه وليد تراث قديم، لا يستطيع أن يتجاوزه، يحكم سيطرته عليه، وإذا ما حاول أن يخرج عن هذا الإطار، سرعان ما يستفيق وعيه الكامن في أعماقه، وتنتصب أمامه ذكريات طفولة وأقاصيص ماض بعيد، وقيم بيئة استنشق في ظلها هواءه الأول، فأضاء ذلك الهواء ظلمته وغربته، وغذى فيه مشاعر الانتماء، وقوى في كيانه عواطف لم تكن تعرف طريقها من قبل.

والاستشراق ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها عواطف اكتشاف ذلك المجهول الغامض المحاط بالرموز التي لا تقرأ أحرفها بسهولة، والشرق، وهو ذلك المجهول في أعماق النفس الأوروبية، ليس هو مجرد كيان جغرافي بعيد، ولو كان الأمر كذلك لتطلعت النفس إلى استكشاف ذلك المجهول الجغرافي، مندفعة بتلقائية وعفوية تحتضن بحب ولهفة ذلك الوليد المكتشف، وتجد في ملامحه إشراقة براءة وطفولة،

وليس هو مجرد غابة مكتظة بمعارف وعلوم وثقافات وتقاليد وحضارات، ولو كان الأمر كذلك، لاندفعت النفس إلى تلك الغابة، مستظلة بمعارفها، مستنشقة هواءها النقي الغني بأسباب الصحة، ضاحكة مستبشرة تحضن الطبيعة بلهفة، وتستلقي فوق ترابها مطمئنة مستقرة.

ليس الأمر كذلك في موطن الاستشراق، فالشرق في نظر الثقافة الغربية كوْنٌ جديد وقارة غاضبة متحدية وضفة شرقية منتصبة بكبرياء التاريخ شامخة باعتزاز، تقف وحيدة وكأنها التاريخ كله، تقاوم كل تحد، ولا تستسلم، لا تقبل إلا أن تكون وليدة تاريخ أحكمت فيه سيطرتها على ما حولها، تملك من إمكانات القوة والقدرة على التلاحم والصمود والتضحية ما يخيف أعداءها.

لن ينسى ذلك الطفل الوليد الذي تربى في أحضان الثقافة الغربية ما كان يسمعه في طفولته من أمه وأبيه ومن مدرسته ومجتمعه، عن الإسلام والعرب والجهاد، وعن جيوش المسلمين وهي تزحف بشجاعة وسرعة على قلاع أوروبا وحصونها في الأندلس وفي بلاد الروم، وتطارد المسيحية وتدفعها دفعاً قاهراً مذلاً، وتحكم سيطرتها على تلك البلاد، وتنشر الإسلام وتعلي شأنه وتعزز ثقافته وفكره وحضارته.

تلك ذكريات الطفولة .. وأية ذكريات أقسى على النفس من ذكريات خصم منافس يملك من إمكانات القوة والقهر ما يجعل مقاومته قاسية ومخيفة.

نشأة الاستشراق

نشأت حركة الاستشراق كظاهرة ثقافية في أعقاب ذلك الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية الشابة المتوثبة، والحضارة الغربية المسيحية المترنحة المتخاذلة، واستطاعت الحضارة الإسلامية أن تبسط سلطانها على جزء كبير من آسيا وإفريقيا، وامتدت إلى جنوب أوروبا، وأقامت دولاً كبيرة ذات قوة وحضارة، وأسهمت في ثقافة الإنسان، وأضافت الكثير من المعارف والنظريات والآراء في مختلف حقول المعرفة الإنسانية.

ولما أصاب الحضارة الإسلامية الركود والتوقف، واضطربت أوضاع المسلمين، وتمزقت دولهم، وانصرفوا إلى الترف واللهو، طمع فيهم عدوهم الجاثم على حدودهم المترقب لأوضاعهم الطامع في أرضهم، وأخذ يعد نفسه لمواجهة ذلك العدو اللدود.

وفجأة انطلقت الحملات الصليبية متلاحقة قوية متحدية مستفزة، وأخذت طريقها نحو القدس، مخترقة قلب العالم الإسلامي، مدعمة بتحالف مقدس بين الكنيسة والملوك الأوروبيين، واستطاعت أن تقيم دولة صليبية في القدس، وأن تحكم قبضتها على جزء من العالم الإسلامي.

وأدت الحروب الصليبية إلى ما يلي :

1. استعاد الغرب ثقته بنفسه، وأخذ يعد نفسه لمواجهة طويلة وحاسمة مع العالم الإسلامي.
2. التفت الغرب إلى العلوم والمعارف، وأدرك أهمية ذلك في صراعه مع العالم الإسلامي.
3. استفاد الغرب من صلته بالعالم الإسلامي، فعكف على ترجمة المعارف الإسلامية، وأخذت الكنيسة تشجع حركة الترجمة، وتوفد رجالها إلى المراكز العلمية في العالم الإسلامي لكي يتعلموا على يد العلماء المسلمين.

ولما تأكد العالم الغربي أن العالم الإسلامي قادر على أن يدافع عن نفسه ويملك إمكانات المغالبة وتحقيق النصر، وجد أن طريقه على النصر يكمن فيما يلي :

1. **استكشاف العالم الإسلامي** ومعرفة أوجه ثقافته، وأسباب قوته، ومواطن ضعفه.
2. **الاستفادة من علوم العالم الإسلامي**، لبناء نهضة ثقافية وعلمية متفوقة.
3. **إشغال العالم الإسلامي بقضايا جانبية** تمزق كلمته وتضعف وحدته، وتستنزف قواه، وتشغله عن تحقيق التقدم.

الفصل الأول

التعريف بالاستشراق

الاستشراق مدرسة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات، وليس من اليسير على أي باحث أن يحيط بأسرار هذه المدرسة وأن يستكشف كل خطواتها، وأن يلم بأهدافها، فهي وليد صراع طويل بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وهي نتاج تجربة حية من تناقض وتباين بين عقيدتين وثقافتين وحضارتين.

وكلمة "**الاستشراق**" كلمة اصطلاحية، لا يراد بها مدلولها اللغوي، من حيث التوجه نحو الشرق، يقال: استشرق أي اتجه إلى الشرق، وانتسب إليه، واستشرق في المفهوم الاصطلاحي طلب علوم الشرق واتجاه للتخصص في معرفتها، والمستشرق هو المتخصص في علوم الشرق وحضارته وآثاره وفنونه، وأطلقت كلمة "**مستشرق**" لأول مرة سنة 1630م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشرق، وعرف قاموس اكسفورد الجديد معنى المستشرق بأنه "من تبحر في لغات الشرق وآدابه"، وكانت تطلق في البداية على من تخصص في فقه اللغات الشرقية.

وأخذ علم الاستشراق يهتم في البداية بالعلاقات الإنسانية والثقافية بين الشرق والغرب، من خلال دراسة اللغات الشرقية والفنون والعادات والمعتقدات كمرحلة أولى لاستكشاف تطور الفكر الإنساني وإيجاد روابط بين الثقافات الشرقية والغربية، واستعملت كلمة الاستشراق لأول مرة في **معجم الأكاديمية الفرنسية** سنة 1838م بعد أن شاع استعمالها وأصبحت اللفظة دالة على التخصص في الثقافات الشرقية.

ويبدو من تاريخ ظهور لفظة الاستشراق واستعمالاتها الأولى ، أنها كانت أعم وأشمل من المعنى الذي تدل عليه اللفظة فيما بعد، وكانت مهمة علم الاستشراق الأولى ذات طبيعة ثقافية استكشافية.

وكانت كلمة "**الاستعراب**" مستعملة قبل ذلك، وأطلقت كلمة "**المستعرب**" على غير العربي الذي يعيش في ظل دولة عربية، وربما أطلقت على المسيحيين الذين سكنوا الأندلس وأعلنوا عن انتمائهم للعرب وولائهم لحكمهم، ومن الطبيعي أن تظهر لفظة الاستعراب في الفترة التاريخية التي تمثل حالة الازدهار الثقافي والقوة الحضارية، حيث يزداد التعلق بالحضارة الأقوى، ويبرز الاعتزاز بالانتماء لها.

ويقابل كلمة الاستعراب اليوم كلمة "**الاستغراب**"، حيث تطلق على من أعلن إعجابه بالغرب وأخذ يحاكيه في أسلوبه ويقلده في حياته وينتصر لفكره وثقافته ويدافع عن قيمه ومثله.

والاستشراق اليوم ليس هو استشراق الأمس، فما نقصده اليوم في استعمالنا للفظة الاستشراق، يختلف عن ذلك الاستشراق الأول بمفهومه اللغوي وبنشأته الأولى، فلقد تطور المفهوم ونما، ولم يعد قاصراً على ذلك المفهوم الضيق.

الاستشراق اليوم مدرسة وعلم وسياسة واقتصاد، وبخاصة عندما يكون "**الشرق**" هو الإسلام، كحضارة وعقيدة وتراث وأمة.

وعندما نتحدث اليوم عن "**الاستشراق**"، فإننا لا نقصد ذلك المعنى اللغوي، وإنما نقصد "**الاستشراق**" بمفهومه الاصطلاحي الضيق، الذي يعني "**اهتمام العلماء الغربيين بالدراسات الإسلامية والعربية ومنهج هؤلاء العلماء ومدارسهم واتجاهاتهم ومقاصدهم**".

والاستشراق مرتبط كل الارتباط بالموروث التاريخي للشخصية الغربية في نظرتها للحضارة العربية والإسلامية، وهو موروث مثقل بالتراكمات النفسية، ومشاعر ضاغطة مسيطرة على حركة الفكر مؤثرة في السلوكيات والمواقف[1].

وارتبطت حركة الاستشراق اليوم بالمفهوم الحضاري الغربي الذي استطاع بذكاء أن يوجد تحالفاً بين الثقافة والسياسة، وأن يستخدم الثقافة كأداة لتحقيق أهداف

---

(1) يقول إدوارد سعيد في كتابه "**الاستشراق**" (ص 46): "الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة والبحث والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبراً عنه، وممثلاً لمؤامرة امبريالية غربية شنيعة لإبقاء العالم الشرقي حيث هو، بل إنه بالأحرى توزيع للوعي الجغرافي السياسي إلى نصوص جمالية وبحثية واقتصادية واجتماعية وتاريخية وفقه لغوية، وهو إحكام لا لتمييز جغرافي أساسي وحسب.. بل كذلك لسلسلة كاملة من المصالح التي لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط، بل بالمحافظة عليها أيضاً بوسائل، كالاكتشاف البحثي والاستبناء فقه اللغوي والتحليل النفسي" ـ ترجمة كمال أبوديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة السابعة، 2005م. وللكتاب ترجمة أخرى من إنجاز الدكتور محمد عناني، منشورات رؤية، القاهرة، 2006م.

سياسية، فالغايات المعرفية ليست المرادة والمقصودة في عمل المستشرقين، ولو كان المستشرق يريد أن يعرف الشرق كما هو في عقائده وقيمه وفكره وتقاليده، لأنصت إلى الثقافة الشرقية لكي تحدثه عن ذاتها، لكي يكتشف منها حقيقة الشرق وتراث الشرق.

ليس من حق المستشرق، وقد تصدى لدراسة ثقافة الشرق، أن يجعل نفسه وصياً على تلك الثقافات، فتلك ثقافات متميزة مستقلة متكاملة هي وليد تاريخ طويل من تفاعل الإنسان بالحياة، ومن نظرة ذلك الإنسان للكون، وإذا كانت مهمة المستشرق "**الاستكشاف**"، فمن واجبه أن **يتابع رسالته الثقافية في محاولة استكشاف الشرق كما هو، من غير وصاية عليه.**

دوافع الاستشراق

بدأت دوافع الاستشراق الأولى كمحاولة استكشاف للآخر، وهو تطلع طبيعي وفطري، فكل شيء يبحث عن الآخر، وكل ضفة يدفعها الفضول لمعرفة الضفة المقابلة لها، لأنها الآخر، والآخر في جميع الظروف، هو الخصم والمنافس والنقيض.

ومحاولات الاستكشاف الأولى كانت طبيعية تلقائية : عالمان متقابلان، شرق وغرب، كل منهما يتطلع إلى الآخر، يبحث عن ذاته من خلال ذلك الآخر.

في الشرق ثقافات متنوعة، وحضارات وأديان، والغربيُّ يجد في الشرق صورة مكملة لذاته، ولهذا فهو لا يرفض الشرق كتراث إنساني وكتجربة حضارية، فالحضارات اللاحقة الغالبة لا تضيق بحضارات سابقة مستسلمة، وإنما يرفض الشرق المتحدي المقاوم المهدِّد للقيم الغربية.

والاستشراق في بدايته حركة ثقافية حية، وعندما وجد نفسه في إطار المنطقة الجغرافية المتميزة بتاريخها المثقل بالذكريات والمواجهات والتحديات، تذكر فجأة مشاعر الخوف من ثقافة هذه المنطقة، وهي ثقافة متكاملة طموح ذات قيم عظيمة، أنجبت حضارة وقادت أمة، ومن خصائصها الجهاد والتضحية والاستشهاد.

هنا يحدث التداخل :

- التداخل بين الثقافة والسياسة.
- التداخل بين الموروث في العقلية الغربية ومسؤولية المثقف ورسالته الإنسانية.

وهنا يكمن التناقض :

ـ التناقض بين الحقيقة العلمية التي يؤكدها البحث الجاد والنزوع النفسي إلى كبح جماح ذلك الخطر المتمثل في حضارة الإسلام.

وفي هذه النقطة بالذات، تنمو دوافع الاستشراق وتتمدد وتستجيب لمتطلبات عميقة في أعماق النفس الغربية، ويتداخل الدافع السياسي مع الدافع الديني ويتلاحمان في دفع عجلة الدراسات الاستشراقية لكي تسقط تحت ضغط الموروث التاريخي في بئر مظلمة من التعصب والتجاهل والتجني على الحقيقة العلمية.

وكان يمكن للاستشراق أن يكون جسراً بين حضارتين وثقافتين، يحقق التقارب بين الغرب والشرق، ويوجد أواصر القربى بين الثقافات الإنسانية، ويجدد صلات الرحم بين إنسان الشرق وإنسان الغرب في مسيرة المجتمع البشري وتطوره، ولو حقق الاستشراق هذه الغاية وقرّب ما تباعد من المواقف ومد جسوراً من الثقة بين الغرب والشرق، لحقق لحضارة الغرب تفوقاً وتميزاً، ولجعل منها حضارة الإنسان تنمي قيم التعايش والتساكن، وتقر مبادئ من التكافل بين الشعوب على أساس احترام خصوصيات كل أمة وحقها في احتضان ثقافتها التي هي جزء من شخصيتها.

ولعل من أهم الأسباب التي دفعت المستشرقين إلى دراسة الحضارة الإسلامية، هي محاولة استكشاف طبيعة هذه الحضارة وخصوصياتها، وذلك لأن كل حضارة ذات خصائص مميزة، ولكي يتمكن الغرب من استكشاف طبيعة الحضارة الإسلامية، كان مطالباً بأن يدرس ثقافة هذه الحضارة ومكوناتها، لتحقيق غايتين:

الغاية الأولى : تفسيرية، ذلك عن طريق الكشف عن مقومات الحضارة الإسلامية، من حيث قدرتها على التكوين الاجتماعي والسيطرة على مسار المجتمعات الإسلامية، وصياغة رؤية فكرية متميزة.

الغاية الثانية: توجيهية: وذلك بفرض التحكم في مسار الشعوب الإسلامية عن طريق معرفة التناقضات القومية والطائفية والإقليمية، بحيث تكون المعرفة الناتجة عن الدراسات الاستشراقية أداة تحكمية، توجه الأحداث، وترسم معالم الحركة المناسبة، وتحكم قبضتها على الشعوب الإسلامية من خلال إمساكها بمفاتيح الأسرار التي تفجر الأزمات في الزمان والمكان الملائمين.

عوامل جديدة في دوافع الاستشراق

قد تكون فكرة الاستشراق الأولى هي معرفة الآخر، في محاولة جادة لفهم روح الحضارات، واستكشاف فلسفة الثقافات الشرقية[1]، وهذا الهدف قد يكون دافعاً في محاولة الاستشراق لمعرفة العالم الإسلامي وفكره وثقافته، وربما يكون الدافع النفسي الذي يعززه بعض الفضول.

ثم تأكد هذا الدافع بعاملين مهمّين :

العامل الأول : عامل ديني، والإسلام بالنسبة للغرب ظاهرة جديرة بالدراسة وحقيقة لا مجال لإنكارها، فهو قوة دينية متلاحمة، وهو في الوقت نفسه خطر يهدد الغرب في حالة يقظته، ولهذا أخذت الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بالدراسات الإسلامية، تحظى باهتمام أكبر لدى الغرب، نظراً لتداخل الثقافة بالإرث التاريخي والديني، والغرب في جميع الظروف، ينظر للإسلام نظرة لا يمكن أن توصف بالحياد، والمعتدلون والمنصفون من المستشرقين يعترفون بهذه الحقيقة، ويتفاوتون في درجة التزامهم بالموضوعية والإنصاف في مواقفهم بالنسبة للحضارة الإسلامية.

العامل الثاني : عامل سياسي: وهو العامل الأوضح في حركة الاستشراق، فالاستشراق في صورته الأولى تَطَلُّعٌ معرفيّ وهدف ثقافي، ولما امتدت مطامح الغرب في الشرق لأهداف استراتيجية واقتصادية، كان الاستشراق هو جهاز المعلومات القادر على أن يمد الأجهزة التنفيذية بمخططات جغرافية واجتماعية وسكانية وثقافية، ويبين بكل دقة مكونات كل منطقة في العالم وخصائصها ومواطن القوة والضعف فيها، وهذا التحالف الاستراتيجي بين حركة الاستشراق والمطامح الاستعمارية، أفقد المؤسسة الاستشراقية أهم خصوصياتها الثقافية والأخلاقية. وأدى التحالف إلى النتائج التالية:

---

(1) ذهب المستشرق "**فيلك**" إلى تشبيه لطيف ودقيق، إذ شبه موقف الغرب في القرون الوسطى من روح الحضارة العربية الإسلامية، بموقف الشرق اليوم من تقنية الغرب، فكما أن الشرق اليوم لا يفهم من تقنية الغرب سوى الظاهر والقشور، فكذلك الغرب لم يكن يفهم حضارة الشرق إلا من خلال مظاهرها وقشورها. (انظر كتاب الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص 139) للدكتور محمد ياسين عريبي.

أولاً: ضعف الثقة بالدراسات الاستشراقية، من حيث نزاهة هذه الدراسات والتزامها بالموضوعية والحياد، والبحث عن الحقيقة.

ثانياً: إيجاد فجوة بين الدراسات الاستشراقية وحركة الثقافة الوطنية، وأصبح منهج الدراسات الاستشراقية موطناً للشك والريبة، وبخاصة وأن الدراسات الاستشراقية لم تحترم خصوصيات الثقافة الإسلامية، بل استخدمت أسلوباً يمكن أن يوصف بأسلوب الاستفزاز والتحدي، وبخاصة عندما يتصدى لقضايا ثقافية، ويصدر حكماً مسبقاً قبل أن تتضح له الحقيقة كما أثبتها البحث العلمي.

ومن الطبيعي أن يتسع العامل السياسي لكي يشمل عوامل جديدة أسهمت في تشجيع المدرسة الاستشراقية على أن تخضع حركتها للمصالح الاستراتيجية للغرب، سواء كانت المصالح سياسية أو اقتصادية أو إعلامية أو عسكرية.

وهكذا يمكننا أن نحدد الأطوار التاريخية للنزعة الاستشراقية فيما يلي :

الطور الأول : نشأة الفكر الاستشراقي :

ويبتدئ تاريخه منذ أن بدأت الدول الغربية تهتم بالإسلام كحضارة وثقافة، بعد أن حقق انتصاراً كاسحاً على المسيحية، وهدد عواصمها التاريخية وحصونها الثقافية وقلاعها الدينية. ويمكننا أن نلاحظ الآثار الأولى لهذه النزعة من خلال اهتمام الكنيسة المسيحية بالدراسات الإسلامية، وبخاصة فيما يتعلق بقضايا العقيدة في القرآن، وطرح قضايا فكرية ذات أبعاد عقدية، كمسألة خلق القرآن وصفات الله، والوحدانية، وهي قضايا كانت تشغل اهتمام علماء الكلام، وتثير كثيراً من الخلاف. ثم تطورت هذه الظاهرة من حوار ديني بين علماء الإسلام وعلماء الكنيسة، إلى منهج استشراقي أخذ يبرز في الأندلس، من خلال اتصال الكنيسة بالحضارة الإسلامية، واهتمامها بمراكز العلم، وانصرافها إلى ترجمة الكتب العربية وإقرار تدريسها في مراكزهم العلمية[1].

---

(1) ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن حركة الاستشراق الفعلية بدأت برحلة جربيردي أورياك من فرنسا إلى قرطبة سنة 967م، طلبا للحكمة في عهد الحكم الثاني، ومكث ثلاث سنوات في الأندلس يدرس الحكمة على يد علماء مسلمين، ثم رحل بعدها إلى روما صحبة قديس برشلونة، ثم ذاع صيته وعرف بنبوغه وأصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني، وكان يطلب تزويده بكل الكتب اللاتينية المترجمة عن العربية الصادرة في برشلونة وقرطبة. وهذا يؤكد أن الدراسات الاستشراقية الأولى نشأت في أحضان الكنيسة، وكانت الأندلس هي الموطن الأهم للفكر الاستشراقي الأول.

(انظر كتاب الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي للدكتور محمد ياسين عريبي، ص 137، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط).

وفي هذا الطور الأول كان الغرب يرى في الإسلام صورة الحضارة وموطن العلم، واتجهت البعثات العلمية إلى البلاد الإسلامية، ونظرت الكنيسة نظرة حذر وريبة في هذا الاتجاه، وقاومته في عهد شارلمان، ولما تولى حفيده الملك شارل عرش فرنسا، أقر خطة إصلاحية يتم بموجبها :

1. إسناد **مهمة التدريس** في المدارس الأوربية لأساتذة من العرب أو من الذين تعلموا في المدارس العربية في إسبانيا.
2. إرسال **بعثات من الطلاب** الأوربيين للدراسة في الأندلس، على أيدي العلماء العرب.
3. **ترجمة أهم الكتب** العربية إلى اللغة اللاتينية، وبخاصة في ميادين العلوم والآداب والفنون والطب والفلسفة..

ولما تولى مركز البابوية البابا سلفستر الثاني في نهاية القرن العاشر الميلادي، وكان قد تعلم في الأندلس، شجع هذا التلاقي بين الغرب والشرق، وحث على الاستفادة من علوم العرب وحضارتهم[1].

وهذا الطور يمثل الاتجاه العام لتلاقي الشرق والغرب على صعيد التعاون الثقافي، وتبرز في هذا الطور خصوصية الاقتباس والاستفادة من الحضارة الإسلامية، وبالرغم من أن الاستشراق فيما بعد أخذ أبعاداً جديدة، واتجه نحو أهداف مغايرة لروح التلاقي، فإن هذه المرحلة هي الأهم في تعبيد الطريق أمام نشأة الاستشراق كمدرسة غربية مهتمة بدراسات العالم الإسلامي.

الطور الثاني : ظهور العامل الديني في الفكر الاستشراقي :

ويبتدئ هذا الطور منذ قيام الحروب الصليبية التي أوجدت فجوة نفسية بين الغرب والشرق، وأوقفت ذلك التلاقي العفوي بين الديانات في سبيل نمو المعرفة الإنسانية، فالغرب المسيحي اندفع بقوة وحماسة لتحدي العالم الإسلامي، واستطاع أن يقتحم حصونه، وأن يقيم دولة صليبية في القدس، وشعر العالم الإسلامي بالإذلال، وسرعان ما فشلت الحملة الصليبية، وتركت هذه الفترة التاريخية آثارها في النفس، وعمقت مشاعر العداء بين الغرب المسيحي والمشرق الإسلامي، واتجه الاستشراق اتجاهاً

(1) انظر كتاب فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر للدكتور أحمد سمايلوفتش، ص 73، دار المعارف، القاهرة، 1980م.

مغايراً لاتجاهه الأول، فلم يعد قاصراً على اقتباس المعارف والعلوم من المدرسة الإسلامية، وإنما أخذ يتطلع بدافع من التعصب لنقد تلك المعارف والعلوم، وبخاصة فيما يتعلق بمناهج المدارس الإسلامية، وبما تقرره من نتائج ومسلمات.

وتميز هذا الطور بما يلي :

أولاً : بروز ظاهرة التعصب الديني لدى المسيحيين بعد فشل الحملات الصليبية، وولدت مشاعر من الكراهية والحقد ضد العرب والمسلمين.

ثانياً : التسليم بأن مواجهة العالم الإسلامي غير ممكنة ما دام متلاحماً وموحداً، بسبب قوة العقيدة الإسلامية وقدرتها على تحريك المسلمين تحت شعار الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام.

ثالثاً: الاهتمام بشؤون العالم الإسلامي وتطويقه وإضعافه داخلياً، عن طريقين:

الأول : إضعاف القيم الإسلامية.

والثاني : إثارة الخلافات والتناقضات بين شعوبه ودوله.

ولما سقطت الأندلس تأججت مشاعر الحماسة لدى الغرب المسيحي في مواصلة الضغط على الدول الإسلامية، وزادت من أهمية الاهتمام بدراسة شؤون العالم الإسلامي السياسية والثقافية والاجتماعية والجغرافية.

الطور الثالث : بروز المدرسة الاستشراقية الحديثة:

ويبتدئ هذا الطور منذ أن بدأ تشكيل البدايات الأولى للمدرسة الاستشراقية، الحديثة في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، حيث أخذ الغرب يضاعف من اهتمامه بالثقافة العربية والإسلامية، ويطبع الكتب العربية، وينشئ مدارس علومها ويقيم كراسي في جامعات الغرب للاهتمام بالمصادر العربية، تحقيقاً لها وخدمة لها، وكشفاً عن كنوز المعرفة في تراثنا، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي غافلاً عن كل ما حوله، مستسلماً لواقعه، راضياً بتخلفه.

وكان دور المستشرقين في هذه الفترة التاريخية إيجابياً، خدم الثقافة العربية، وشجع حركة البحث والنقد، وسعى في تطوير مناهج الدراسات الإسلامية، واستطاع المستشرقون أن يعرّفوا الغرب بالتراث العربي الإسلامي، وأن يصححوا كثيراً من

المفاهيم الخاطئة عن هذا التراث، وبالرغم مما كان المستشرقون يحملونه في أعماقهم من عداء للحضارة الإسلامية، فإن معظمهم كان يحرص على الموضوعية، أو على الأقل يتظاهر بالموضوعية والحياد والإنصاف، وهذا موقف جدير بأن يكون في موطن التقدير والثناء، ومما لا شك فيه أن حركة الاستشراق أيقظت النشاط العلمي في العالم العربي، وأسهمت في تقدم مناهج البحث، وشجعت على تكوين مدارس للبحث العلمي وإنشاء كراسي متخصصة في المعاهد والجامعات العربية.

الفصل الثاني

مدارس الاستشراق

اختلف الباحثون في تصنيف مدارس الاستشراق، فمنهم من راعى التصنيف الموضوعي وذكر المستشرقين بحسب تخصصاتهم العلمية، ومنهم من اختص بالدراسات القرآنية، ومنهم من اختص بدراسات السنة والسيرة المتعلقة بالرسول ﷺ، ومنهم من اختص بتاريخ العرب والإسلام، ولا يخفى أن هذا التقسيم لا يخلو من صعوبة، إذ من الصعب أن يكون هذا التصنيف دقيقاً لاعتبارين:

الأول : أن معظم المستشرقين قد كتبوا في موضوعات متداخلة، وليس من اليسير على الباحث أن يكون دقيقاً في تصنيفه، لصعوبة تحديد اتجاهات المستشرقين بسبب تداخل العلوم الإسلامية وتقاربها.

الثاني : من الصعب ـ وفقاً لهذا التصنيف الموضوعي ـ وضع خصائص لكل مدرسة من المدارس الاستشراقية، لأن كل مدرسة تشتمل على عدد كبير من المستشرقين يختلفون اختلافاً بيناً في مناهجهم واتجاهاتهم وميولهم، لاختلاف طبائع الشعوب وما تتركه في شعوبها من طبائع وملامح.

ولهذا اتجه بعض الباحثين إلى تصنيف المدارس الاستشراقية بحسب انتماءات أفرادها، فهناك **المدرسة الفرنسية، والمدرسة الإنجليزية، والمدرسة الألمانية، والمدرسة الإيطالية، والمدرسة الإسبانية، والمدرسة الأمريكية، والمدرسة الروسية.**

واختار الأستاذ نجيب العقيقي في كتابه "**المستشرقون**"[1]. هذا التصنيف، ورجحه، وتحدث عن كل دولة من الدول الأوربية، وذكر كل ما يتعلق بالدراسات الاستشراقية فيها، من كراس ومكتبات ومطابع ومجلات، وعدد أسماء المستشرقين

(1) الكتاب في ثلاثة أجزاء، ونشرته دار المعارف في القاهرة. وصدرت الطبعة الأولى سنة 1975م.

وترجم لكل واحد منهم، وذكر آثاره العلمية، وهذا المنهج في التصنيف الجغرافي أيسر من ناحية التصنيف، ويساعد على استخلاص خصائص كل مدرسة، واتجاهاتها ومواقفها ومواطن اهتمامها.

ومع هذا، فإن كلا من التصنيفين الموضوعي والجغرافي، لا يغني عن الآخر، ولا بد من إيجاد تصنيف ثالث، يساعدنا على تكوين مدارس استشراقية، من حيث المواقف والخصائص، فهناك المدرسة الموضوعية التي يغلب على أفرادها الحياد والإنصاف والتزام المنهج العلمي والنزاهة، وهناك المدرسة العنصرية التي يغلب على أفرادها التعصب والأحكام المتسرعة وعدم النزاهة، ومحاولة إبراز مظاهر التعالي والتفوق الغربي على الشرق.

والباحث في ظاهرة الاستشراق يعنيه في الدرجة الأولى أن يصنف المستشرقين بحسب مواقفهم الأخلاقية، وبحسب احترامهم لقواعد البحث العلمي والالتزام بالموضوعية، ومن الطبيعي أننا ننظر بارتياح للمستشرقين الذين يقفون موقف النزاهة ويدافعون بحرارة عن حضارتنا وتراثنا وعقيدتنا، فهؤلاء جديرون بالتقدير، من وجهة نظرنا.

وأهم المدارس الاستشراقية ما يلي :

أولاً: المدرسة الفرنسية :

تُعدُّ المدرسة الاستشراقية في فرنسا من أبرز المدارس الاستشراقية، وأغناها فكراً وأخصبها إنتاجاً وأكثرها وضوحاً، ويعود سبب ذلك للعلاقات الوثيقة التي تربط فرنسا بالعالم العربي والإسلامي، قديماً وحديثاً، وكانت فرنسا موجودة في معظم علاقات العرب بأوروبا، في حالات السلم والحرب، فالعرب وصلوا إلى حدود فرنسا، وأخافوها، وكانت فرنسا على علاقة وثيقة بدولة الخلافة العباسية في أيام شارلمان والرشيد، وشاركت في الحروب الصليبية، وتطلعت إلى احتلال أجزاء من الوطن العربي، وغزا نابليون مصر، وأقام علاقات سياسية واقتصادية معها، واحتلت فرنسا المغرب العربي وسوريا ولبنان.

وهذا التاريخ السياسي المتواصل، جعل فرنسا من أوائل الدول الأوربية التي عنيت بالدراسات العربية والإسلامية، للاستفادة منها وترجمة آثارها وإنشاء كراس علمية لتدريسها منذ القرن الثاني، وأوفدت طلابها لمدارس الأندلس لدراسة الفلسفة والحكمة والطب فيها.

ومنذ وقت طويل أنشئت كراس في المعاهد والجامعات الفرنسية لدراسات اللغات الشرقية، ومنها اللغة العربية والدراسات الإسلامية[1] ، ويوجد في مكتبة باريس الوطنية أكثر من سبعة آلاف مخطوط عربي، ونوادر من الآثار الإسلامية من نقود وأختام وخرائط، وأسهم المسيحيون اللبنانيون في نقل بعض المخطوطات العربية إلى فرنسا[2].

وصدرت في فرنسا مجلات اهتمت بالتراث العربي والإسلامي والتعريف به، واستطاع الأدب العربي أن يؤثر في الأدب الفرنسي، وانتشرت بعض الكتب الأدبية العربية في فرنسا، كما تأثر بعض المفكرين الفرنسيين بما اطلعوا عليه من تراث العرب وفلسفتهم من أمثال ابن رشد وابن خلدون والنزعات الصوفية، واستعملوا كثيراً من المصطلحات الدينية التي كانت سائدة في التراث العربي الإسلامي.

ومن المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بالحضارة العربية الإسلامية :

1. بوستل (1505-1581م) الذي تعلم اللغات الشرقية، وقام بتكوين الطلائع الأولى لجيل المستشرقين، ودرس اللغة العربية في فيينا، وكتب عن قواعد اللغة العربية، وعن التوافق بين القرآن والإنجيل، وعن عادات وشريعة المسلمين.

2. البارون دي ساسي (1758-1838م)، وكان مكلفاً بالمخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية، وكتب عن قدماء العرب وعن اليمن وعن ديانة الدروز، واهتم بكتب القزويني، ولخص بعض الكتب العربية، وكتب عن تاريخ مصر وعرب الحجاز، وكان من مؤسسي الجمعية الأسيوية ورئيساً لها، وقضى حياته في خدمة الاستشراق بالتأليف والترجمة والتحقيق والنشر، وكان من أبرز المستشرقين في عصره.

---

(1) أنشأت فرنسا منذ القرن الثاني عشر مدارس لدراسة الثقافة العربية، ومن هذه المدارس مدرسة (**رِمس**) التي أنشئت بأمر من البابا سلفستر الثاني، ومدرسة (**شارتر**) التي اهتمت بدراسة الفلسفة، ودعا البابا اكليمنفن الخامس عام 1311م إلى إنشاء كراس للغتين العربية والعبرية في باريس واكسفورد وروما، وأنشأت جامعة باريس كرسياً للغات السامية، وأنشئت المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس عام 1750م، وعني معهد الآداب بالسربون بدراسة تاريخ الفنون الإسلامية وتاريخ الحضارة العربية، وأنشأت فرنسا مدارس فرنسية في المغرب وتونس وسوريا ومصر ولبنان.

(2) قام عدد من المستشرقين بدارسة المخطوطات العربية في المكتبات الفرنسية ووضعوا فهارس لها، ووصفوا هذه المخطوطات من حيث العنوان والمؤلف ومزايا المخطوط ونوع الورق والحجم وتاريخ النسخ وعدد الصفحات (انظر المستشرقون ج1، ص143).

3. كاترمير (1782-1852م) وكان من تلاميذ البارون دي ساسي ورئيساً لتحرير المجلة الأسيوية، ويتميز بكثرة إنتاجه العلمي وكثرة مصنفاته عن الإسلام وثقافته وحضارته، واهتم بمصنفات الميداني، وترجم كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي، ونشر كتباً قيمة منها بعض مختارات من مقدمة ابن خلدون، وصنف كتاباً عن اللغة العربية وآدابها.

4. البارون دي سلان (1801-1878م)، وكان من تلاميذ دي ساسي، واهتم بدراسات المغرب، ونشر ديوان امرئ القيس، وترجم لبعض المشهورين في الإسلام، وصنف عن البربر والأسر الإسلامية التي ملكت في شمال إفريقيا، ونشر منتخبات من تاريخ مصر، وكتب في المجلة الأسيوية عدداً من البحوث عن المجاز في بعض مفردات الشعر العربي، وترجم كتباً هامة عن شمال إفريقيا والمغرب، والسودان وموريتانيا.

5. شربونو (1813-1882م) وكان من تلاميذ دي ساسي، واهتم بآداب العرب في السودان، وتاريخ بعض الأسر الحاكمة في بلاد المغرب، وكتب عن تاريخ العباسيين، ورحلة العبدري إلى شمال إفريقيا، وتاريخ أسرة بني حفص، وتاريخ الأدب العربي في السودان، وكان أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية.

وكتب "فانيان" (1931م) عن فقه سيدي خليل في الفقه المالكي وقام بترتيبه، وترجم كتاب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد المراكشي [1]، وكتب عن الزواج في الإسلام، وعن مفهوم الجهاد في الفقه المالكي، واهتم كليمان (1927م) بالتراث العربي الإسلامي، وكتب عن الفنون الإسلامية والآداب وعن الدراويش في الصوفية، واهتم ببعض النصوص التراثية، وترجم بعضها ونشر البعض الآخر، وكان عضواً في عدد من المجامع العربية والجمعيات العلمية.

وهناك العشرات من المستشرقين الفرنسيين الذين كونوا المدرسة الفرنسية، وتابعوا مسيرة الدراسات الاستشراقية، وأكدوا قوة المدرسة الفرنسية وقدرتها على البحث والمثابرة، من أبرزهم : شارل بيلا، ومكسيم رودنسون، وليكونت، ومكيل اندرو، وجاك بيرك، وبوسكه الذي اهتم بدراسة الفقه الإسلامي، ولاوست، وبلاشير، وماسينيون، وبروفنسال.

---

(1) نشرته مطبعة الاستقامة في القاهرة عام 1949م، بتحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي.

ولا يمكن إغفال المكانة الخاصة للمستشرق لويس ماسينيون المتوفى عام 1962م، في مدرسة الاستشراق الفرنسية، نظراً لصلاته القوية بالعالم العربي، ومواقفه الموضوعية والمنصفة في الغالب، من قضايا العالم الإسلامي، ودفاعه عن حق العرب في أرضهم واستقلالهم.

وأعد لويس ماسينيون رسالته للدكتوراه عن آلام الحلاج في التصوف الإسلامي، وأكد فيها أصالة الفكر الصوفي وعمقه، كما أتاحت له اتصالاته مع المؤسسات الإسلامية العلمية ومعرفته المباشرة، قدرة على فهم الكثير مما كان يجهله غيره من المستشرقين، فلقد اتصل بالأزهر واستمع إلى دروس علماء الأزهر، وتابع منهجهم في التدريس والإلقاء، وارتدى الزي الأزهري، ودرّس الفلسفة في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً)، ورحل إلى بلاد كثيرة، القاهرة وبغداد وحلب والاستانة وبيروت، والجزائر وفاس والرباط، وتولى رئاسة تحرير مجلة (**العالم الإسلامي**) ثم مجلة (**الدراسات الإسلامية**) التي حلت مكانها[1].

وكان ماسينيون حجة فيما يكتبه عن التصوف الإسلامي، ومعظم ما كتب عن التصوف في المعاجم الفرنسية كان من إعداده، وكون مدرسة استشراقية متميزة، وله تلاميذه الذين تأثروا بمنهجه وطريقته، وأخذوا عنه موضوعيته (إلاّ في بعض المسائل) وتشبعوا بأخلاقه. وترك ماسينيون ما لا يقل عن 650 أثراً ما بين تحقيق وتصنيف وترجمة وتأليف ومقال وتقرير ومحاضرة.

ولو تتبعنا هذه الدراسات، لوجدنا أنها تشمل كل ما يتعلق بتاريخ الإسلام وفكره وتراثه ومذاهبه وطرقه الصوفية وكتبه، وقام بإعداد دراسات مقارنة بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي، ولعل دراساته عن التصوف هي أهم ما يميز منهج ماسينيون، لأنه استطاع أن يفهم جيداً الروح الإسلامية، وأن يعيش كمفكر البيئة الفكرية التي تصنع الفكر وتصيغ معالمه وتحدد إطاره العام، وقد اعترفت معظم المجامع العربية بمكانته وأثنت على جهوده، واختارته عضواً فيها[2].

وعرَّف الدكتور عبد الرحمن بدوي ماسينيون في كتابه (**موسوعة المستشرقين**) بقوله: "مستشرق فرنسي عظيم، وهو من بين المستشرقين في مكانة لا يضارعه فيها إلا نيلدكه ونلينو، وجولد زيهر، وهو قد امتاز عنهم جميعاً بنفوذ النظرة وعمق الاستنباط والقدرة على معرفة التيارات المستورة وراء المذاهب الظاهرة والأفكار السطحية، ومرد ذلك إلى

(1) انظر المستشرقون، ج1، ص264 .
(2) انظر المستشرقون، ج1، ص 263-266.

مزاج شخصي خاص جعل حياته الباطنة ثرة عامرة بأعمق المعاني الروحية، ولم يكن ظاهري المذهب في أي بحث طرقه حتى ولو كان في صميم المباحث العلمية أو الأثرية، وبرئ من دعاوة النزعة التاريخية التي أصابت أبحاث "**نيلدكه وجولد زهير**" بالمغالاة في تلمس الأشباه والنظائر الخارجية السطحية في الغالب الأعم - إيذاناً بالتأثير، وهو منهج ينطوي على مصادرة وإفراط كان من فضل ماسينيون أنه نأى بنفسه جانباً عنه، ولئن كان الإيغال في الاستبطان مما يدفع ماسينيون أحياناً إلى إضفاء روحانية عميقة على ما لم يكن في ذهن أصحابه غير حرفية أو وضعية بسيطة، فما كان ذلك إلاَّ نتيجة اشتغاله المتواصل بفهم أسرار الصوفية، وهي بطبعها ذات معنى "**مطلع**" أي يدعى الكشف عن الباطن المجهول من الظاهر"[1].

ثانياً : المدرسة الإنجليزية :

تتميز المدرسة الاستشراقية الإنجليزية بالعمق والدقة، وهي أكثر المدارس صلة بالشرق، وبخاصة بالشرقين الأوسط والأقصى، وكانت صلات بريطانيا بالشرق قوية، عن طريق الاتصالات الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، وكانت المدرسة الإنجليزية وثيقة الصلة بمنطقة الخليج والعراق وفلسطين ومصر، بالإضافة إلى صلاتها الوثيقة بالهند، والإسلام في المنطقة الهندية له تراث عريق، ولا يمكن إغفال أهمية تلك البلاد الهندية في إغناء الفكر الإسلامي.

ومن الطبيعي أن تتأثر المدرسة الإنجليزية باهتمامات المناطق الجغرافية التي تسيطر عليها، وأن توجه اهتمامها لفهم إسلام كل منطقة ومكوناته وفكره وتراثه وقضاياه.

والاستشراق اهتمام بدراسة الشرق وفكره وثقافته، والشرق ممتد على رقعة فسيحة الأرجاء، تسكنه شعوب مختلفة التكوين متباينة الخصائص، متصارعة متنافسة، وبالرغم من أن الإسلام وحد الكثير من ثقافة هذه الشعوب وقرب ما تباعد من فكرها وعقائدها وقيمها وتقاليدها، بفضل وحدة التوجيه المستمد من القرآن ووحدة المعايير التي تحكم السلوك الإنساني، بسبب الثقافة الواحدة الموجهة ذات المصدرية الإلهية، فإن بعض الخصائص تظل ثابتة، لأنها ترتبط بالجغرافيا أولاً لتأثيرها على السلوك، وترتبط ثانياً بالقابليات المكتسبة المتوارثة التي تحكم قبضتها على مسار تلك الشعوب، من حيث الطباع والعادات وقيم السلوك.

---

(1) انظر موسوعة المستشرقين، ص 363-364.

وإذا كانت المدرسة الفرنسية تجد في إفريقيا الشمالية ساحة رحبة لاهتمامها، وتدرس الحضارة الإسلامية من خلال تاريخ هذه المنطقة، فإن المدرسة الإنجليزية تبحث عن الحضارة الإسلامية في المنطقة الإسلامية من آسيا، في الهند والصين والعراق وفلسطين.

وكما تتأثر المدارس الاستشراقية بساحة نفوذها وامتدادها وحضورها، فإنها تتأثر أيضاً بطبائع الشعوب التي تنتمي إليها المدرسة، فالشعوب ليست متماثلة في تكوينها، وينعكس ذلك على خصائص المدرسة، فالفرنسيون ليسوا كالإنجليز في تكوينهم النفسي، فالفرنسي واضح شديد الاعتزاز بنفسه، ويعتبر ذلك من خصائص الشعب الفرنسي، وهو يميل إلى المبالغة والنزوع إلى المثالية ويفتخر بذلك، ولا يخفي انفعاله في المواقف، وعناده في الدفاع عما يعتقده صحيحا، وهو بسبب ذلك أكثر عنصرية في تعامله مع الشعوب التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي، والفرنسي شديد الطموح فيما يتعلق بمستقبله، ويغرق في كثير من الأحيان في الأحلام، ولا يفيق إلا عند ما يكتشف الحقيقة كما هي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للطبيعة الإنجليزية الهادئة التي تغلب عليها العزلة والنزوع إلى الواقع، وإخفاء مطامحها تحت ستار العقلانية والقبول بالأمر الواقع، وتستطيع الطبيعة الإنجليزية أن تحقق أهدافها بذكاء ودهاء بسبب غموضها وعدم انفعالها، وهذه الطبائع يمكننا إدراكها في خصائص كل مدرسة من المدارس الاستشراقية، ولا يمكننا فهم فلسفة كل مدرسة وتفسير مواقفها إلا بعد معرفة خصائص كل مدرسة من حيث الدوافع والاستعدادات والطبائع.

والمدارس الاستشراقية الأوربية انطلقت في البداية كحركة استشراقية غربية أوربية واحدة، ولم تكن لها عاصمة خاصة، انطلقت من رغبة الغرب في اكتشاف علوم الشرق بشكل عام والشرق الإسلامي بشكل خاص، ومعرفة هذا العالم الغامض الذي انطلقت منه الحضارات الإنسانية ذات الإشعاع الروحي والبعد الإنساني.

ودور الكنيسة واضح في تشجيع الدراسات الاستشراقية منذ القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر، حيث كان البابا يشجع دراسة علوم الشرق والحضارات الشرقية، وربما كانت حملة نابليون من العوامل المباشرة والمؤثرة في تشجيع الدراسات الاستشراقية، لأن الغرب اكتشف مصالحه الحيوية في الشرق، ولما أنشئت الكراسي العلمية للدراسات الشرقية، تكونت نواة المدارس الاستشراقية، وكانت جامعة أكسفورد من أوائل الجامعات الإنجليزية التي أنشأت قسما للدراسات الشرقية، ثم للدراسات العربية والإسلامية عام 1636م، أشرف عليه كبير الأساقفة "**لود**" وعرف بكرسي "لود".

وفي عام 1633م، استحدث السير توماس ادامز أول كرس للدراسات العربية في جامعة كمبريدج، وأنشأت "**جامعة لندن**" كرسياً للغة العربية، ثم أنشأت كرسياً للدراسات الإسلامية أشرف عليه "بكنجهام".

ثم أخذت الجامعات الإنجليزية الأخرى تنشئ أقساماً للدراسات الشرقية، ومعظم الجامعات الإنجليزية اليوم تدرس اللغات والدراسات الشرقية، ثم أخذت هذه الجامعات تنشئ مدارس وكليات تابعة لها، في إفريقيا والبلاد العربية والإسلامية وفي الهند والباكستان.

واهتمت مكتبة المتحف البريطاني في لندن بالتراث الشرقي، وضمت إليها مكتبات بعض القناصل الذين عملوا في القاهرة وبغداد ومسقط ودمشق، وجمعوا كثيراً من المقتنيات الشرقية من مخطوطات ووثائق ومصاحف ومعاجم وأوراق البردي ومسجلات رسمية، وهناك فهارس للمخطوطات العربية وفهارس للكتب العربية في المتحف البريطاني وضعها بعض الباحثين[1].

ومن أبرز المستشرقين الإنجليز:

1. هاملتون جيب (1895-1971م): ولد بالإسكندرية، واتجه إلى للدراسات الأدبية، واهتم بتاريخ الثقافة العربية، وأشرف على الدراسات العربية في جامعتي لندن وأكسفورد، وكتب عن الاتجاهات الحديثة في الإسلام، وعن التفكير الديني في الإسلام، وعن الديانة المحمدية، وعن الحضارة الإسلامية، وعن فتوحات العرب في آسيا الوسطى، وعن الحملات الصليبية، وعن النظرية الإسلامية عند ابن خلدون، وعن نظرية الماوردي في الخلافة.

وتبرز في كتابات هاملتون روح التعصب، ويمثل شخصية المستشرق الذي يوجه أداته في البحث لتحقيق أحكام مسبقة، وكان يحرص على انتقاص أثر العرب في بناء حضارتهم، والتقليل من دورهم، والإشادة بأثر الترجمة عن اليونان في نهضة العرب العلمية[2].

---

(1) انظر المستشرقون، ج2، ص23.

(2) انظر موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي ص 150، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993م.

2. **ارثر جون اربري** (1868-1945م): **اتجه منذ دراساته الأولى إلى اللغات اللاتينية واليونانية والفارسية، وتأثر بأستاذه نيكلسون الذي أخذ عنه الاهتمام بالاستشراق، وتعلم منه العربية، وقضى فترة من حياته بالقاهرة، وأشرف على قسم الدراسات القديمة بالجامعة المصرية[1]. ونشر كتاب "المواقف والمخاطبات" للنفري في التصوف، وأعد فهارس للمخطوطات العربية في جامعة كمبريدج، وعين أستاذاً بكرسي اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، واعتبر ذلك شرفاً له، واهتم اربري بالدراسات الفارسية وترجم بعض التراث الفارسي[2]، وأهم أعماله العلمية ترجمته للقرآن، وهي ترجمة أقرب ما تكون إلى التفسير، لأنه لم يلتزم بضوابط الترجمة، وإنما أراد إعطاء المعاني القرآنية وتوضيحها بأسلوب مشرق[3].**

3. **رينولد نيكلسون** (1868-1945م) **يُعدُّ نيكلسون من أبرز المستشرقين في المدرسة الإنجليزية الذين اهتموا بالتصوف الإسلامي، وكان أستاذاً بجامعة كمبريدج، وانصرف إلى دراسة التصوف، وكتب مقالات عديدة عن الصوفية في الإسلام، وأهداف التصوف الإسلامي، وسيرتَيْ ابن الفارض وابن عربي، ونشر ديوان جلال الدين الرومي (المثنوي)، وديوان (ترجمان الأشواق) لابن عربي[4].**

وهناك مستشرقون آخرون من أبرزهم السير توماس ارنولد المتوفى سنة 1930م، وكان أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية بلندن، وكان من المعجبين بالإسلام[5]، ومرجليوث المتوفى سنة 1940م، وكان أستاذاً بجامعة أكسفورد ورئيساً لتحرير مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، وكان عضواً في المجمع اللغوي بدمشق، واهتم بالمخطوطات العربية في المتحف البريطاني، وله آثار علمية واسعة وترجمات وتحقيقات علمية منشورة في المجلات العلمية عن الإسلام والتصوف والخلافة الإسلامية والشعر الجاهلي[6]، وفيليبي المتوفى سنة 1960م. وكان مهتماً بالجزيرة العربية ودراسة مناطقها وفكرها والحركة الوهابية، وأشهر إسلامه[7]،

---

(1) انظر المصدر نفسه، ص 8/5.

(2) انظر المستشرقون، ج2، ص 137.

(3) انظر موسوعة المستشرقين، ص8.

(4) انظر موسوعة المستشرقين، ص 416.

(5) انظر المستشرقون ج2، ص84.

(6) انظر المصدر نفسه، ج2، ص 77-78.

(7) انظر المصدر نفسه، ج2، ص 116.

وألفرد وجيوم المتوفى سنة 1962م الذي تخرج في أكسفورد، وكان عضواً في المجمعين العلميين العراقي والسوري، ومن آثاره: (**تراث الإسلام**)[1]، واهتم بدراسة الحديث والسيرة النبوية)[2].

ثالثاً : المدرسة الألمانية :

كانت الحروب الصليبية هي المحرك الأهم في علاقات الغرب المسيحي بالعالم العربي والإسلامي، ومن الطبيعي أن ينصرف اهتمام الألمان إلى دراسة اللغات الشرقية بعد أن بدأت هذه الدراسات تحظى باهتمام العلماء في فرنسا وإنجلترا، وكانت علاقات ألمانيا مع الدولة العثمانية قوية بسبب الروابط والمصالح السياسية والاقتصادية، وكان المستشرقون الأوائل في المدرسة الفرنسية هم رواد المدارس الاستشراقية في أوروبا كلها، ولما شعرت ألمانيا بأهمية الدراسات الشرقية، أنشأت في جامعاتها معاهد اللغات الشرقية، وفي بداية هذا القرن ازداد اهتمام الجامعات الألمانية بالدراسات العربية والإسلامية، ويوجد في برلين متحف للفن الإسلامي، وأنشأ فلايشر الجمعية الشرقية الألمانية التي تبنت نشر التراث العربي والإسلامي ونشر ذخائره وتوثيق صلة ألمانيا بالعالم العربي والإسلامي، ونشرت هذه الجمعية عدداً من أمهات الكتب العربية، وأسس "**هارتمان**" الجمعية الشرقية الألمانية للدراسات الإسلامية، التي أصدرت مجلة "**عالم الإسلام**"، كما أصدر المستشرقون عدداً من المجلات عن الشرق وتراث الشرق، ومن أبرزها "**مجلة الإسلام**" التي صدرت عن معهد اللغات الشرقية بجامعة هامبورج، وتهتم هذه المجلة التي أنشأها المستشرق "**كارل بيكر**"[3]. بالتعريف بالتراث العربي والإسلامي والعناية به.

وتتميز المدرسة الألمانية بالجدية والعمق والدقة، ومن الصعب تجاهل دورها في مجال البحث والدراسة، وبالرغم من أنها بدأت في وقت متأخر، فإن المستشرقين الألمان أكدوا أصالة هذه المدرسة وقوتها وقدرتها على التصدي لقضايا فكرية هامة. ومن أبرز علماء هذه المدرسة :

---

(1) كتاب (**تراث الإسلام**) من إعداد جمهرة من المستشرقين بإشراف توماس ارنولد. ترجمه إلى اللغة العربية. جرجس فتح الله، وطبع في بيروت عام 1954م، وظهرت طبعة ثانية له في عام 1972م، وصدر عن دار الطليعة للطباعة والنشر. كما صدر الكتاب في جزءين ضمن سلسلة (**عالم المعرفة**) في الكويت. وأعادت السلسلة نشر الكتاب.

(2) انظر المستشرقون، ج 2، ص 118.

(3) يعد من أبرز المستشرقين الألمان الذين اهتموا بالسياسة الألمانية، وكان خبيراً بالأوضاع السياسية والدينية والاقتصادية في العالم الإسلامي، ويملك قدرة على النظرة الشمولية، والربط بين الإمكانات الروحية والمواقف السياسية، وأسندت إليه رئاسة معهد شؤون المستعمرات، وتولى الوزارة، وكان يهتم بالحياة الروحية للشعوب ويحسن فهم الظواهر الحضارية (انظر موسوعة المستشرقين، ص 74).

أولاً : كارل بروكلمان (1868-1956م) :

يعدُّ بروكلمان من أشهر المستشرقين الألمان بسبب كتابه الشهير "**تاريخ الأدب العربي**"[1]، وتتلمذ على يد المستشرق "**نيلدكه**"، وأخذ عنه اهتمامه بالدراسات العربية، وبدأ عمله العلمي بدراسة عن العلاقة بين كتاب (**الكامل**) لابن الأثير وكتاب (**أخبار الرسل**) للطبري، وعين أستاذاً في عدد من الجامعات الألمانية، وعضواً في عدد من المجامع العلمية، ومنها مجمع دمشق. واشتهر بروكلمان بنشاطه العلمي وعمقه وصبره ودقته، وله آثار علمية كثيرة، في التاريخ والسيرة والتراجم واللغات الشرقية القديمة، وله دراسات في اللغة العثمانية القديمة، وفي علم الأصوات الأشورية، وفي القواعد النحوية والصرفية للغات السامية[2]، وله مشاركات كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية، وكان يتقن إحدى عشرة لغة من اللغات السامية القديمة، وهذه المعرفة اللغوية مكنته من وضع دراسات لغوية عن اللغات القديمة، وأهم كتبه "**تاريخ الأدب العربي**" الذي ترجم فيه للمؤلفين والعلماء العرب، وذكر كتبهم وعرف بها وذكر أوصافها ومزاياها وتاريخ طبعها ومكان وجودها، وقام بدراسة عن المخطوطات العربية في المكتبات الأوربية، وبالرغم من وقوع بعض الأخطاء في هذه الموسوعة العلمية، فإن هذا الكتاب يعدّ من أبرز الكتب أهمية وفائدة، وأشرفت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية على ترجمة هذا الكتاب. وصدرت الترجمة العربية عام 1962م.

ثانياً : جوزيف شاخت (1902 ـ 1969م) :

تخرج شاخت من الجامعات الألمانية، وعين أستاذاً للدراسات الشرقية فيها، وانتدب لتدريس فقه اللغة في الجامعة المصرية، ثم انتقل إلى إنجلترا، وعمل في الإذاعة البريطانية ضد بلاده[3]، وحصل على الدكتوراه مرة ثانية من أكسفورد، وحاضر فيها، ثم عين أستاذاً في جامعة ليدن في هولندا، وانتخب عضواً في عدد من المجامع العلمية ومنها المجمع اللغوي بدمشق، واهتم بدراسة الفقه الإسلامي ونشر عدة كتب فقهية[4]، منها كتاب (**الحيل والمخارج**) للخصاف، "وكتاب الحيل في الفقه" للقزويني، وكتاب "**اختلاف الفقهاء**" للطبري، وكتب أبحاثاً في علم الكلام عند علماء الإسلام،

---

(1) انظر موسوعة المستشرقين، ص 57، وترجم الدكتور عبد الحليم النجار كتاب (**تاريخ الأدب العربي**) إلى اللغة العربية وصدر سنة 1962م. عن دار المعارف في القاهرة في 6 أجزاء.

(2) انظر المستشرقون، ج 2، ص 424.

(3) موسوعة المستشرقين، ص 252.

(4) انظر المستشرقون، ج، ص 469.

وأهم آثاره: "**بداية الفقه الإسلامي**" وهو كتاب ركز فيه على دراسة المذهب الشافعي من خلال كتاب "**الرسالة**" للإمام الشافعي، وكتب عن تاريخ الفقه الإسلامي وألف كتاباً سماه : "**المدخل للفقه الإسلامي**" باللغة الإنجليزية، واهتم بدراسة الشريعة والقانون في مصر، واهتم بدراسة المخطوطات العربية الموجودة في استانبول والقاهرة وفاس وتونس، وكان دقيقاً في كتاباته الفقهية، واسع الاطلاع على مراجعه العلمية، وكتاباته في تاريخ الفقه الإسلامي قيمة ومفيدة.. وتدل على عمق معرفته واطلاعه[1].

ووصف الدكتور عبد الرحمن بدوي شاخت بقوله :

"كان شاخت حريصاً على الدقة العلمية في عرض المذاهب الفقهية وفي دراسة أمور الفقه عامة، مبتعداً عن النظريات العامة والآراء الافتراضية التي أولع بها أمثال جولد تسيهر وسنتلانا ممن كتبوا في الفقه، ولهذا كانت دراسات ومؤلفات "شاخت" أبقى أثراً وأقرب إلى التحقيق العلمي وأوثق وأجدى"[2].

ومن المستشرقين الألمان "تيودور نولدكه" المتوفى سنة 1930م، الذي اشتهر بأسلوبه العلمي وسعة المعرفة، وكان يعدُّ شيخَ المستشرقين، نظراً لمكانته العلمية، وكتب في تاريخ النص القرآني[3]، كما كتب في التراث العربي وفي الشعر الجاهلي.

واشتهر من المستشرقين الألمان كل من المستشرق "زاخاو" المتوفى سنة 1930م والمستشرق "فللهوزن" المتوفى سنة 1918م، والمستشرق "مارتن هارتمان" المتوفى سنة 1918م، والمستشرق "أوجست فيشر" المتوفى سنة 1949م.

والمدرسة الألمانية تتميز بالجدية والصرامة والدقة وعمق البحث وسعة المعرفة، وساهم المستشرقون الألمان بجهد كبير في خدمة التراث العربي الإسلامي، وآثارهم العلمية واضحة الدلالة على تميز المدرسة الاستشراقية بالتزام المنهجية العلمية.

وهناك مدارس استشراقية أخرى، تختلف أهميتها باختلاف عطاءاتها العلمية، وتتميز كل منها في معظم الأحيان، بطبيعة صلاتها بالحضارة العربية والإسلامية، ومن الطبيعي أن تكون المدرسة الإسبانية متميزة عن بقية المدارس الأوروبية من حيث المواقف والعواطف، فالتراث العربي الإسلامي إذا كان بالنسبة للمدارس الاستشراقية

---

(1) انظر موسوعة المستشرقين، ص254.

(2) انظر المصدر نفسه، ص 255.

(3) ترجم كتاب (**تاريخ القرآن**) إلى اللغة العربية، جورج تامر، منشورات الجمل ـ كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد، 2008م.

الأوروبية تراثاً مشرقياً، ويمثل الاهتمام به الحرص على معرفة الآخر، من حيث طبيعة ذلك التراث وروحه، فإن التراث العربي الإسلامي بالنسبة للمدرسة الإسبانية، هو تراث إسباني ينظر إليه نظرة الأمة لتراثها، ويقع الاعتزاز به، وعندما ينسب إلى الأندلس فإنما ينسب إلى التاريخ الإسباني، وهو ليس شيئاً خارجاً عن نطاق التاريخ الإسلامي.

ولا يمكن للمستشرق الإسباني أن يخفي إعجابه بتراث العرب بالأندلس، فالأندلس حتى اليوم مازالت تعيش على ذكريات الحضارة الأندلسية الإسلامية التي جعلت الأندلس قلعة المعرفة والثقافة وعاصمة العلم والمدارس العلمية.

ولايمكن للاستشراق الإسباني أن يتجاهل الحقيقة وأن يخفي اعتزازه بالحضارة الأندلسية، ولا يمكن أن يقف موقف الحياد أمام التراث العلمي الإسلامي الذي ما زالت آثاره قائمة، ولهذا كان من الطبيعي أن تنصرف المدرسة الاستشراقية الإسبانية إلى الاهتمام بتاريخ الأندلس وتراثه.

وينطبق هذا المعيار على معظم المدارس الاستشراقية في البلاد التي انتشر فيها الإسلام، كالدول الإسلامية في جنوب أوروبا، والتي خضعت للدولة العثمانية، ومازال الإسلام فيها قوياً، فالتراث الإسلامي هو جزء من تاريخ تلك البلاد، وأسهمت كل أمة في بناء تراث الإسلام، فتراث الإسلام هو نتاج تفاعل شعوب، وهو نتاج عبقريات أمم أسهمت في صنع حضارة ذات تراث إنساني، أغنت الحياة الإنسانية بمثل وقيم اجتماعية وأخلاقية سامية.

رابعاً : مدارس استشراقية أخرى :

ومن الطبيعي أن تبرز اليوم، وفي ظل تطورات حضارية وسياسية معاصرة، "**مدارس استشراقية**" ليست هي مدارس الأمس، فمدارس الأمس انتهت بغروب شمس ذلك اليوم، ومدارس اليوم تعبر عن رؤية عالم اليوم لأوجه التعاون بين الغرب والشرق، وهو تعاون يخفي في حقيقته صفة غامضة ومشبوهة تؤكد تبعية الشرق للغرب، وحتمية هذه التبعية، والتسليم بها، كحقيقة واقعة، يقررها منطق التفوق الحضاري والمادي، ويؤكدها نظام دولي يكرس هيمنة الغرب على الشرق.

والمدارس الاستشراقية قديمها وحديثها، ما كان منها في الماضي وما سيكون في المستقبل، سواء اكتشفت تلك المدارس أو لم تكتشف، هي أداة علمية، تتحرك تلقائياً حركتها العلمية، وتتحكم فيها أجهزة قوية، تراقب حركتها، وترصد مواقفها، وتتبع

بدقة نتائج بحوثها ودراساتها، ويوجد كل ذلك ضمن استراتيجية غربية مدروسة، توفر للغرب حماية لمصالحه، وتكرس سيطرته على الشرق.

واستشراق الغد أشد خطورة من استشراق الأمس، إنه الممسك بمقود الشرق، والوصي على حركته، ومن المتوقع أن تبرز مدارس جديدة ليست هي مدارس الأمس، وستكون عواصمها هي عواصم القرار السياسي، وتراث الشرق الذي سيكون موطناً للدراسة لن يكون ذلك التراث الغوي الصامت، وإنما سيكون تراث الإسلام من حيث قدرته على الحركة والمقاومة ومطاردة قيم الغرب في العالم الإسلامي ومحاربة مصالحه السياسية والاقتصادية.

والنظام العالمي الجديد سيلغي مفاهيم قديمة، وسيحدث مفاهيم جديدة، **والاستشراق في ظل النظام العالمي الجديد هو استشراق استكشاف، وتوجيه، ومواجهة، لكل ما يتعلق بالإسلام، فالاستكشاف هو بحث عن القدرات والطاقات،** وهي المرحلة الأولى، ثم يأتي دور التوجيه والتحكم، وهي المرحلة الثانية، ثم تبتدئ المرحلة الثالثة وهي مرحلة مواجهة، وهي حتمية ومتوقعة.

الفصل الثالث

أثر الاستشراق في الفكر العربي الإسلامي

من الصعب علينا أن ننكر أثر الدراسات الاستشراقية في الفكر العربي الإسلامي، من حيث تطوير المناهج العلمية وتشجيع الدراسات النقدية وإحياء بعض أمهات الكتب العربية، والاهتمام بالدراسات المعجمية والموسوعية، وإيجاد مناهج للدراسات اللغوية في إطار اللغات الشرقية التي تمثل روح الحضارات الشرقية ذات الطبيعة المتميزة المعبرة عن الشخصية الشرقية في إطارها الفكري وفي تكوينها الثقافي.

وليس من الخطإ القول بأن الدراسات الاستشراقية أسهمت في تكوين الظروف المناسبة للنهضة العربية واليقظة الفكرية التي شهدها العالم العربي في بداية القرن العشرين، إذ من المؤكد أن الحضارة الإسلامية شهدت ركوداً واضحاً وجموداً في العهد العثماني، وتوقفت الحركة العلمية وتراجعت مظاهر الحياة في العالم العربي، وشاعت قيم وتقاليد تكرس التخلف وتنظر بعين الريبة والحذر والرفض لكل حركة ثقافية حية، ولكل مدرسة علمية ترفع شعار التجديد، وتدين مظاهر التخلف.

وكانت الظروف العامة مهيأة لرفض الواقع الاجتماعي وإدانته، وبخاصة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، وأصبحت رمزا للتخلف والجمود، وارتفعت الأصوات الحرة مطالبة بتصحيح الأوضاع معلنة رفضها للواقع رافعة شعار المقاومة، متطلعة لنهضة ثقافية تواكب مسيرة الحضارة.

واتسعت دائرة التطلع لحركة إصلاحية، دينية وثقافية وسياسية واجتماعية، وظهرت حركات دينية سلفية داعية لتصحيح المفاهيم الدينية، وأعقبتها موجات من دعوات للإصلاح الاجتماعي والسياسي والإداري، وظهرت فكرة القوميات ونمت كظاهرة رفض للواقع، وإدانة لمظاهر التخلف، واتسعت المدارس الإصلاحية وارتفع صوتها مطالباً بالتصحيح، مؤكداً رفضه للواقع المتخلف.

ولقد استفاد رموز الإصلاح من اتصالهم بالحضارة الغربية، وعادت مواكب الموفدين إلى الجامعات الأوروبية يحملون معهم أفكاراً إصلاحية، في مجال المناهج التعليمية والحريات العامة والتنظيمات السياسية والإصلاح الاجتماعي والإداري والقضائي، وأخذوا يبثون هذه الأفكار في مجتمعهم، وأنشئت صحف ومجلات وجمعيات ثقافية وسياسية ودينية، وأحدثت جامعات ومعاهد علمية، وأخذت نداءات الإصلاح تتلاحق ملحة داعية إلى يقظة شاملة وصحوة ونهضة.

وتكونت مدارس إصلاحية، اختلفت اتجاهاتها ومنطلقاتها وميولها. ويمكننا تصنيف هذه المدارس كما يلي :

أولاً : مدرسة إصلاحية متأثرة بالغرب، معجبة بحضارته داعية إلى الاقتباس من ثقافته وفكره، معلنة بكل صراحة أن الطريق الوحيد للنهضة يكمن في نبذ الماضي والتنكر له والاقتداء الكامل بالغرب واقتفاء أثره في الثقافة والسلوك والقيم والعادات... .

وهذه المدرسة تأثرت بالمدارس الاستشراقية، وتبنت الفكر الاستشراقي، وحملت راية الدفاع عن الغرب، وهاجمت الثقافة الإسلامية وأعلنت عداءها للتراث العربي والإسلامي، وطالبت بتحديث الفكر العربي والتصدي للتراث بالنقد والتجريح.

واستطاع رموز هذه المدرسة أن يأخذوا مواقعهم في ميادين الإدارة والسياسة والثقافة والتربية والتعليم والإعلام، واستخدموا منابر الجامعات والمدارس ووسائل الإعلام والمناهج التعليمية لترويج أفكارهم، ومقاومة القيم الإسلامية، والتقليل من أهمية التراث العربي الإسلامي.

وكانت بعض المواقف الفكرية لرواد هذه المدرسة الوفية للغرب، واضحة التميز والتطرف، ضد العرب والإسلام، عنيفة في استفزازها لمشاعر الأمة، حادة في أسلوب حوارها، معلنة بكل صراحة عداءها للتراث الإسلامي، منكرة فضله داعية إلى التنكر له وتجاوزه.

ثانية : مدرسة إصلاحية رافضة للغرب، مشككة في مهمة المستشرقين، ناقدة للحضارة الغربية، مبينة فساد منهج المستشرقين في دراستهم للتراث الجاهلي، مؤكدة جهل المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي، وحقدهم عليه، وحرصهم على محاربته والتشكيك في قيمته العلمية، ومن أهم أسباب نشأة هذه المدرسة أنها أرادت أن تواجه المدرسة الاستشراقية، وأن تتصدى لافتراءاتها ضد الإسلام، وأن تكشف عن ارتباط رموزها وقادتها بالمستشرقين.

وكما وقع التطرف في مواقف المدرسة الغربية الوفية لمنهج المستشرقين وآرائهم، فقد وقع التطرف في مواقف المدرسة الإسلامية التي رفضت كل قيم الغرب وأعلنت عداءها المطلق للمدارس الاستشراقية.

ومن واجبنا أن نقف موقف الحياد، وأن نناقش هذه المدارس وأن نحاكم هذه الاتجاهات، وأن نعترف لكل مدرسة بما أعطت، وأن نقف وقفة موضوعية من المدارس الاستشراقية، فلا نرفضها كل الرفض ونتنكر لآثارها الإيجابية في ميدان المناهج العلمية وخدمة التراث العربي الإسلامي، وفي الوقت ذاته لا ننكر على أمتنا حقها في الدفاع عن تراثها وعقيدتها وقيمها والتصدي لكل من يعبث بمقدسات هذه الأمة.

الآثار الإيجابية للمدارس الاستشراقية

أسهم الاستشراق في دفع عجلة البحوث العلمية، وتنمية المناهج، وتشجيع حركة البحث والتحقيق، وربط الصلة بين المناهج الغربية والمناهج الشرقية، وتعميق الصلة بين علماء الاستشراق والعلماء العرب والمسلمين، والمستشرقون ليسوا في درجة سواء، فبعضهم كان يتميز بموضوعية علمية، وبدقة في بحوثه، ودافع بعضهم عن التراث العربي الإسلامي بحماسة، ولا نستطيع أن ننكر أن الدراسات الاستشراقية أسهمت في تعريف الغرب المسيحي بحضارة الإسلام، ووقفت في وجه حملات التضليل التي كانت سائدة في الغرب ضد الحضارة العربية والإسلامية.

وأهم الآثار الإيجابية للمدارس الاستشراقية ما يلي :

أولاً : في مجال تحقيق المخطوطات

اِهتم المستشرقون بتحقيق التراث العربي والإسلامي، ونشروا كتباً قيمة، وجهدهم في هذا المجال واضح، ولا يمكن إنكاره، فقد تصدوا للتراث بشجاعة، وتحملوا مشاق البحث بصبر.

وتحقيق النصوص ليس يسيراً، فليست القضية قاصرة على قراءة المخطوط، فقد تكون النسخة ليست أصلية، ولا بد هنا من معرفة النسخة الأصلية التي يجدر أن تكون معتمدة، ولا بد هنا من الحصول على النسخ من المكتبات، لتحقيق النص الأصلي، ولكي يتم تحقيق النص، لابد من الاستعانة بمنهج نقدي يمكن المحقق من استكشاف النص ومعرفة دلالات الألفاظ.

وممن ألف في فن التحقيق المستشرق برجستراسير[1] في كتابه : "**أصول نقد النصوص ونشر الكتب**" وهو مجموعة محاضرات ألقاها على طلاب الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام 1931م، ثم نشر بلاشير[2] كتابه بالفرنسية بعنوان "**قواعد نشر النصوص وترجمتها**". ولما كانت النسخ خطية كان من واجب المحقق أن يضع قواعد موضوعية لترجيح النسخة المعتمدة، ثم تبرز المهمة الثانية المتمثلة في حسن القراءة التي تتطلب من المحقق معرفة بالمادة العلمية والمصطلحات لهذه المادة، ولو افترضنا أن كتاباً مخطوطاً في الحديث أو الفقه أو الأصول أريد تحقيقه، ولا يمكن أن يكون التحقيق دقيقاً ما لم يكن المحقق ملماً بأسلوب المحدثين أو الفقهاء متقناً لمصطلحات هذا الفن.

وممن استفاد من منهج المستشرقين في التحقيق ونقل هذا المنهج إلى العربية، المرحوم أحمد زكي باشا (المعروف بشيخ العروبة) الذي أشاد بمنهج المستشرقين في دقة التحقيق واستخدام علامات الترقيم والعناية بالفهارس[3] وألف الأستاذ البحاثة عبد السلام هارون كتاباً في فن التحقيق، سماه "**فن تحقيق النصوص ونشرها**"[4]، سجل فيه خطوات التحقيق ومراحله وضوابطه، واستفاد من خبرته الطويلة في هذا المجال، ثم كتب بعد ذلك الدكتور صلاح الدين المنجد كتابه "**قواعد تحقيق المخطوطات**"[5] الذي قدمه إلى مؤتمر المجامع العلمية بدمشق عام 1956م، واعترف فيه بأهمية منهج المستشرقين في تحقيق النصوص، وبخاصة منهج المستشرقين الألمان، الذين أتقنوا هذا الفن واهتموا به.

ومن واجبنا أن نعترف بجهود المستشرقين في ميدان تحقيق النصوص، ولا شك أنهم بهذا المنهج العلمي قد خدموا التراث العربي الإسلامي، وأغنوا مدارسنا العلمية بتجربة علمية رائدة.

---

(1) المستشرق برجستراسير توفي سنة 1933م، وكان من المستشرقين الألمان، واهتم بالدراسات الإسلامية، ودوَّن أنغام القرآن بالنوتة، وأنشأ متحفاً للقرآن في ميونخ، ونشر محاضراته في نشر النصوص كل من تلميذيه حمدي البكري وخليل عساكر، وله كتاب حروف النفي في القرآن ومعجم قراء القرآن. (المستشرقون، ج2، ص 450).

(2) بلاشير مستشرق فرنسي توفي سنة 1973م، عاش حياته الأولى في المغرب، وكان مدرساً في مدرسة مولاي يوسف بالرباط، ثم في معهد الدراسات العليا المغربي (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ـ حالياً)، وله كتاب "عن المتنبي" وتاريخ الأدب العربي، وترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية. (انظر موسوعة المستشرقين، ص82).

(3) انظر فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، ص 558.

(4) نشرته مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى سنة 1948م، القاهرة. وصدرت الطبعة الرابعة عن مكتبة الخانجي سنة 1977م.

(5) الطبعة الرابعة، دار الكتاب الجديد، بيروت 1970م.

ثانياً: الاهتمام بالتأليف المعجمي والموسوعي

اهتم المستشرقون بالتأليف المعجمي والموسوعي للعلوم العربية والإسلامية، وانكبوا على خدمة التراث العربي وتدوين تاريخ الآداب العربية، وإعداد موسوعات ومعاجم علمية تساعد الباحث على إعداد بحوثه العلمية وتيسير مادة البحث لديه، وتزويد المؤلفات العلمية بفهارس متقنة، والعناية بالتقسيم والتبويب.

ولو رجعنا إلى كتب التراث العربي والإسلامي، لوجدنا أن معظم كتب التراث ينقصها منهج التقسيم والتبويب الموضوعي، وأحياناً تخلو من فهارس تيسر مهمة الباحث.

ولقد حرص المستشرقون على التزام هذا المنهج العلمي في إعداد البحوث، وأعدوا مؤلفات في تاريخ الأدب العربي، وقسموا هذا التاريخ إلى مراحل، وأعدوا لكل مرحلة تاريخها وحددوا خصائصها.

ومن أوائل الذين تأثروا بمنهج المستشرقين في تدوين تاريخ الآداب العربية، الأستاذ حسن توفيق العدل المتوفى سنة 1904م، والذي تخرج في الأزهر، وكان أستاذاً للأدب العربي في المدرسة الشرقية ببرلين، ولما عاد إلى مصر عين أستاذاً بدار العلوم، وألف عدداً من الكتب من أهمها "**تاريخ آداب اللغة العربية**"[1] و"**أصول الكلمات العامية**"[2] وانتخب عضواً في الجمعية الأسيوية الملكية، وعين أستاذاً بجامعة كمبريدج ومات فيها[3].

ولاشك أن تقسيم المادة العلمية بحسب المراحل التاريخية، وربط الفكر بالمرحلة الزمنية، أمر مفيد وشديد الأهمية، في معرفة تطور الفكر ومدى انسجامه مع البيئة، ومدى تعبيره عن قضايا اجتماعية قائمة.

ومن اليسير علينا أن نفكر اليوم بالمنهج المعجمي وأن نجده منهجاً طبيعياً ومألوفاً، إلا أنه من الضروري أن ندرس هذا المنهج في مراحله الأولى التي نشأ فيها وكان فيهاً جديداً وغير مألوف.

---

(1) الطبعة الأولى، نظارة المعارف، القاهرة، 1906م، والطبعة الثانية بتقديم وتحقيق وليد محمود خالص، نشر جامعة الإمارات العربية المتحدة، دبي، 1992م. والطبعة الثالثة، دار أسامة، عمّان 2002م.

(2) مطبعة الترقي، القاهرة، 1889م.

(3) انظر الموسوعة العربية الميسرة، ص 817 ، دار الشعب، مؤسسة فرانكلين للنشر والتوزيع، القاهرة، 1965م.

ويبرز هذا المنهج المعجمي في إعداد المستشرق الهولندي فنسنك[1] لمعاجم في الحديث النبوي، وأهمها: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن الكتب الستة**[2]، ولما توفي استمر زملاؤه في متابعة عمله في إعداد هذا المعجم، ومن هؤلاء الذين أشرفوا على إصدار هذا المعجم: شارل بيلا وجوزيف شاخت، ثم أكملوا هذا المعجم الهام للألفاظ الواردة في الكتب الستة، بثلاثة تذييلات للأعلام والأماكن والاستشهادات القرآنية، ويتألف هذا المعجم مع ملاحقه من سبعة أجزاء، وكلف القائمين عليه جهداً كبيراً واستمر العمل به لفترة طويلة.

ثالثا: إعداد دائرة المعارف الإسلامية

تعد دائرة المعارف الإسلامية من أهم أعمال المستشرقين، لأنها جمعت جهودهم العلمية في عمل موحد، وتناول كل واحد منهم ما يدخل ضمن تخصصه العلمي، واشتملت على بحوث ودراسات وآراء ومعارف عظيمة الفائدة والأهمية، وهي تغني عن خزانة علمية، وتوفر للباحث جهداً لا يستطيع تحقيقه في سبيل الاطلاع على كل ما يتعلق بالتراث الإسلامي.

وابتدأت فكرة دائرة المعارف الإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وشرع مصنفوها في إعدادها، وصدرت أولى بحوثها عام 1913م، إلى أن اكتملت، واستمر إعدادها أكثر من عشرين عاماً، وهي نتاج جهود عدد كبير من المستشرقين، وتمثل منهجهم في البحث والتأليف والدراسة، كما أنها تعبر عن رؤية المستشرقين للتراث الإسلامي وللحضارة الإسلامية.

ومن الطبيعي أن تعبر الموسوعة عن الفكر الاستشراقي، فمن حيث المنهج فهي جهد يجسد منهج الاستشراق في البحث، ومن حيث الموضوع فهي تعبر عن رأي الاستشراق في التراث الإسلامي، من حيث التعامل معه بأسلوب لا يخلو من شعور بالاستعلاء والتقليل من أهميته، وإبراز المؤثرات الخارجية التي أسهمت في تكوينه، وإبراز الجوانب السلبية فيه، وإنكار خصوصياته، وتجاهل الكثير من خصائص الإبداع فيه.

---

(1) مستشرق هولندي توفى عام 1939م، أول إنتاجه "محمد واليهود في المدينة" وفي عام 1916م أعلن عن عزمه على وضع معجم مفهرس بحسب الألفاظ للأحاديث الواردة في كتب الصحاح الستة، واستعان بثمانية وثلاثين باحثاً لإعداد البطاقات لهذا العمل العظيم، وصدر الجزء الأول من هذا العمل عام 1936م (موسوعة المستشرقين، ص 289) وله كتاب (مفتاح كنوز السنة)، وهو ترتيب هجائي للأحاديث النبوية، وترجمه فؤاد عبد الباقي، وله كتابات عن العقيدة الإسلامية وعن فكر الغزالي.

(2) صدرت الطبعة الأولى في سنة 1936م عن مطبعة برايل في ليدن بهولندا في سبعة أجزاء، ثم صدرت طبعة ثانية مصورة بالأوفسيت عن الطبعة الأولى.

وهذا العمل العلمي الكبير الذي قام به المستشرقون شديد الخطر على التراث الإسلامي، لأنه استطاع أن ينشر بين الباحثين والدارسين غير المتمكنين، أفكاراً خاطئة عن هذا التراث، وترسيخ مفاهيم مغلوطة وترويج روايات شاذة، واستنتاج آراء تسيء لمكانة تراثنا وتضعف الثقة به، وفي الوقت نفسه، فإن عمل المستشرقين العلمي تسري فيه روح التعصب وتوجّهه مقاصد مشبوهة، تهدف إلى إثارة النزعات الطائفية وتشجيع التطلعات القومية، وترويج الفكر والثقافة التي تمزق المجتمعات الإسلامية.

ولهذا، فإن من الضروري التعامل مع أفكار المستشرقين بقدر كبير من الحذر واليقظة، والتنبيه على الأخطاء، وتصحيح المفاهيم لكيلا يكون الاستشراق أداة لتكوين رأي عام ثقافي يرفض ذاته ومجتمعه وتراثه.

وترجمت دائرة المعارف الإسلامية إلى العربية[1] . وقام بهذا العمل عدد من الباحثين المتمكنين، ثم صدرت مجموعة دراسات تقويمية ونقدية أشاد فيها كاتبوها بأهمية هذه الموسوعة، وصححوا الكثير من أخطائها، كما نشرت دراسات عن الترجمة، ومن أبرز الذين تصدوا لبيان أهمية دائرة المعارف الإسلامية، الدكتور أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إسماعيل مظهر، ونشروا ذلك في مجلة "**الرسالة**" عام 1933م[2]، كما كتب الأستاذ "**محمد كرد علي**" بحثه القيم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعنوان "**المعلمة الإسلامية**"، أشاد فيه بهذا العمل العلمي العظيم قبل صدور الترجمة العربية بسنوات[3]، وأشار إلى ما أعده العلماء العرب في القديم من موسوعات ضخمة ومعاجم نفيسة من أمثال الحموي والخوارزمي والبيروني والقلقشندي وابن خلدون[4]. ونشر الأمير شكيب أرسلان مقالاً مهماً بعنوان «**الإنسيكلوبيدية الإسلامية للغات الأجنبية**» في مجلة (**السلام**) لصاحبها الأستاذ محمد داود (**العدد 5. السنة 1، تطوان، 1934م**).

---

(1) قام الأساتذة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس ومحمد ثابت الفندي، بترجمة دائرة المعارف الإسلامية إلى العربية منذ سنة 1933م، وحافظت لجنة الترجمة على الدقة والأمانة العلمية، وكانت تستعين ببعض الأساتذة من أمثال أمين الخولي وأحمد شاكر للتعليق على بعض الموضوعات التي تحتاج إلى تصحيح، وبخاصة ما يتعلق بالعقيدة. (انظر المختار من عالم الفكر، ج1، ص 35) الصادر عن مجلة (عالم الفكر) ـ الكويت 1984). وتقع الطبعة العربية من دائرة المعارف الإسلامية في 15 جزءاً.

(2) نشر الدكتور أحمد أمين مقاله بعنوان (دائرة المعارف الإسلامية) في العدد19، السنة1، 1933 م، من مجلة (الرسالة). ونشر اسماعيل مظهر مقاله في العدد نفسه، بينما نشر الدكتور عبد الوهاب عزام مقاله في العدد 20، السنة1، 1933 م.

(3) نشر في المجلد السادس، يونيو سنة 1926م.

(4) انظر فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص 570.

وعني المستشرقون بإعداد معاجم لغرية، وصدرت عدة معاجم قيمة المادة العلمية واضحة المنهج، جيدة الترتيب والتبويب، اعتمدت في مادتها العلمية على المعاجم العربية الأصيلة، والتراث العربي غني بمعاجمه اللغوية الأصيلة، ولو خدمت تلك المعاجم لكانت الاستفادة منها أكبر، وحققت أهدافها في تيسير الاستفادة منها في مجال اللغة والمعرفة.

ولا ينبغي لنا أن نتجاهل أثر المناهج الحديثة في تطوير الدراسات العلمية، والمستشرقون ساهموا بدون شك في تطوير المناهج وتحديثها وبذلوا جهوداً موفقة في هذا المجال، وتركوا آثاراً واضحة في الدراسات اللغوية والتاريخية والفلسفية، وليس من الإنصاف أن ننكر فضلهم في هذا المجال، أو أن ننكر أثرهم، فالمناهج وليدة تطور علمي ونتاج حضارة ودليل تفوق وتميز، ولقد أسهم علماء الإسلام في عصور الازدهار في تطوير المناهج المعرفية، وأبدعوا في مجال التأليف، وأضافوا الكثير من الآراء والأفكار، وأنشأوا مدارس علمية متميزة ومتفوقة، وأسهموا في مسيرة الفكر، وتركوا آثارهم واضحة في كل حقل من حقول المعرفة، ولما تقاعس العلماء في أداء دورهم، واسترخوا واستسلموا، واكتفوا بالحفظ والتكرار والتلخيص والشروح، توقفت الحركة العلمية، وتراجعت مناهج البحث، وسيطرت مدارس التقليد، وازدهرت قيم التعلق بالماضي والوقوف عند حدود المناهج التقليدية[1].

---

(1) يراجع كتاب (**الاستشراق والتاريخ الإسلامي: دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية**)، فاروق عمر فوزي، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998م.